قــدَرُ الإنسان

محمد سعد زغلول سالم

الخميس ٢٠ نوفمبر ١٩٦٩

ما أَشْقَى قدر الإنسان .!. نعم .!. ما أَشْقَى قدر الإنسان ، يُولد لِيَموت ويعيش لِيَمرَض ويحيا لِيَهرُم .!. ويظلُّ طوال عمره مُنتظرا مصيرَه مُترَقِّباً له لا يعرف متى يُداهِمه أو من أين يأتيه أو كيف يلقاه .!.، يكفيه شقاءاً يقينُهُ من حتمية المصير ويأسُه من النجاة وخضوعُه للزمن الذى يَسْحَقه بأقدامِه بغير مبالاة ويدفعه بيَدْيه بلا رحمة صَوْبَ النهاية غير عابىء بما يضيع من آمال وما يموت من أحلام وما يَذوى من أمنيات لا ترجو غيرَ القليل من الراحة والقليل من السعادة وليسَ أكثر .!.، ولذا فإننى أعتقد أنَّ الله قد جعَلَ رحمتَه سابِقة لعَدلِه فى محاسبة الإنسان بسبب هذا الشقاء الذى قُدِرَ عليه منذ بداية مَولِده حتى يلقى مصيرَه أيًّا ما كانَ هذا المصير ، ولكم أتعَجَّب مِنْ ـ وأُشْفِق على ــ مَنْ يزهو بقوة وحكمة الإنسان أو بتفوُّقه وسيطرته على بقية المخلوقات فهم لا يدركون أنَّ هذا هو قدر الإنسان كما أرادَه لهُ الله وكما يجب أن يتحقَّق. أمَّا عجز الإنسان وضعْفِه فيتبَّدى كأوضَحْ ما يكون عندما يحاول خلق قدَرِه الخاص به أو تحقيقه فى هذه الحياة ، فإنسان آخر مثله أو حيوان أعْجَم أو كائن حَّىْ لا يُرَى بالعين أو موجة ماء أو عاصفة هواء أو جلطة دماء فى حجم حُصاة أو حبة رمل وليس أكبر تستطيع قَهْرَ هذا الإنسان والقضاء عليه وتبديد أحلامِه أو تحويله إلى مخلوق بلا حَول أو قوة عاجزٍ عن حماية نفسه بل ورُبَّما عاجز عن الحركة أو الإحساس أو الإدراك .!.، بل إنه يكفى الإنسان شقاءاً طبيعته التى خُلِقَ بها والتى تقف له بالمِرْصاد فى كل خطوةٍ يهُمُّ بها أو يخطوها صَوبَ المفروض الذى بَّينَه لهُ الله ، فالعقل والقلب والجسد عوائق لا سبيلَ إلى تخطِّيها بغير جهاد نفس شاق ومعاناة مريرة لا يستطيعَها إلاَّ أقَّل القليل من البشر، فهذا العقل الغريب العجيب المُعْجز فى تركيبه وفى عمله والذى يبهرُ البشر بقدراته يعتقد الكثيرون أنَّ الله أناطَ به واجبَ هداية الإنسان بينما هو أعْجَزَ مِن أنْ يستطيع ذلك ، فيكفى العقلُ فقط أن يُدْرِكَ وجودَ الله ووحدانيته وقدرته على كلِّ شيء وهذا أمر ليس هَيِّناً أو سهلاً أو ميسوراً حيث أنَّ المؤمنين بنقيض هذا الإدراك فى كلِّ أو بعض جوانبه كانوا منذ البداية ومازالوا حتى الآن ــ بعدَ كلِّ هذه الألوف مِن السنين وهؤلاء الألوف من الرسُل والأنبياء الذين لا يعلم عدَدَهم غيرُ الله ــ أضعافَ أضعافَ المؤمنين به .!.، بل أنَّ أقَّل القليل فقط مِن هؤلاء المؤمنين هُم مَن آمنوا بعقولهم بعدَ مخاض قاسى وأليم ومخيف من التفكير والشَّك والتردُّد والتأمُّل والتمَعُّن والتناقض وإستعراض ونقد البدائل ثم الإدراك والإقتناع ثم الإختيار والتسليم وأخيراً الإسلام والإلتزام !!!. رحلة شاقة شديدة الوطأة على العقل البشرى فقط ليَعرف ويَعِى ويُدرك مَنشأ الوجود وجَوهرَ الحياة وحقائق الإيمان .. فأىُّ شقاءٍ يُعانيه هذا العقلُ بسبَب ضعفِنا .!. وأىُّ عِبءٍ لا قِبَلَ له بتحَمُّله أو التصَدِّى له أو القيام به عندما نطلب منه أيضاً أن يحْمِلَ الروحَ على الهداية وأن يُجْبِرَ الجَسَدَ على الفضيلة وأن يدفعَ النفسَ إلى الإلتزام .!.، فما أشقَى قدرُ الإنسان !.

